

## شَلَّلُ الأَصْدَاءِ د. سليمان بن ناصر العبودي



سمعت في أحد المجالس محدثًا عن نفسه حديثًا عَرَضِيًّا لكنه يفسِّر قدرًا كبيرًا من التساؤل الذي ربما يخطر في الأذهان حول قِلَّةِ نتاجه في مجال تخصصه رغم وفرة علمه وقوة عارضته وروعة بيانه، يقول في أثناء حديثه العَرَضِيِّ: لسْتُ ممن يلقي كلمته ويمضي، وإنما إذا نشرت شيئًا أخذت زَمَنًا أتَّبِع جميع ما قيل حوله من ردود واعتراضات وإضافات.

وهو لا يكتفي بذلك المسلك، بل ربما رَدَّ على بعض هؤلاء المعلِّقين المستطيلين عليه بلا حقٍّ، فهو يلقي صرخةً يتيمةً في وادٍ، ثم يتوقف برهةً من الزمن لينظر أين بلغت أصداؤه صرخته، ويحاول أن يقيس بالضبط مدى تأثيرها على من بلغتهم، ويجتهد أن يدرك إدراكًا تامًّا وتفصيليًّا كيف تلقى المحبِّون والشانئون تلك الصرخة، ونحو ذلك مما يندرج تحت لافتةٍ تتبع الأصداء ورصد الآثار واستجلاء النتائج.

وأما تلك الأصداء التي تبلغه دون تَتَبُّع فإنه يتلقَّفها بقلبه ويفرش لها فراشًا وثيرًا بين جوانحه، فليس بمستغرب منه البتَّة أن تراه يحفظ جملةً عابرةً قيلت عنه في مجلس خاص، وبلغته عبر عِدَّة وسطاء، وجاءته مُسَلَّسَةً بالرواة، ثم هو يرويها لمن لقيه إذا وَجَد أدنى فرجةٍ في الحديث.

هذه حالٌ متكررة عند كثير من الناس في مجالات شتى، مع تفاوت نسبي في درجات الاهتمام؛ بيدَّ صفاء قلبه في تتبع الأصداء المختلفة، ويذر هدوءه النفسي نهجًا للأمزجة المتفاوتة، بينما هو يكثر من دُمِّ عقولٍ أكثر الناس إلا أنه بالمقابل يقف طويلًا عند عباراتهم وأرائهم العابرة، لديه وبامتياز ما أسمَّيه: "قابلية المشاغلة"، فكلُّ شيءٍ مهما صَغُر مؤهَّل لأن يكدرَّ خاطره ويحرف مساره ويبطئ حركته، وكلُّ أحدٍ يستطيع إخراجها عن احتشام لغته ووقار تصرفاته وانتظام أعماله، ولو كانت مجردَ تعليقاتٍ عابرةٍ من أسماء صريحة أو مستعارة، لم يحسن أن يتمثل في حياته قول الله تعالى لنبيِّه صلى الله عليه وسلم: (وأعرض عن الجاهلين).

وهذه الأصداء تشلُّ حركةً من يلقي لها بالأل، ولذلك كلما رأيتُ أحدًا غزيرَ النتاج مباركَ الوقتِ فاعلم بالضرورة أنه مُعرض عن فضول النزاعات وصادفٍ عن أكثر الخلافات، وهو حتمًا قليل الاحتفال بالانتقام لنفسه، فانتظام العطاء واستمراره يناقض إرخاء المسامح لكل كلمةٍ عابرة، ومن فتش في سير المكثرين من النتاج العلمي والعملية من سائر التوجهات وقف على شيءٍ مما ذكرته.

فمن أغزر المعاصرين نتاجًا علميًّا على الإطلاق الشيخ محمد بن ناصر العبودي رحمه الله، وقبل أشهر نَسَرَ الدكتور محمد المشوَّح ترجمةً حافلةً للشيخ بعنوان: (الشيخ محمد العبودي كما عرفته)، ومن أجلِّ ما لَقْتُ انتباهي الفصل الذي عَقَّده المشوَّح عن تعامل الشيخ مع الخلافات العلمية التي تبعث أحيانًا لأسباب مختلفة حول كتبه، وقد بدأ المشوَّح ذلك الفصل بقوله: (ومن سمَّو أخلاقه إعراضه عن كثير من الخلافات والخصومات وعدم انشغاله بها)، ثم ضرب المشوَّح أمثلةً مختلفةً لهذا الإعراض من حياة الشيخ، وليس الشيخ العبودي استثناءً من حياة الأفاذ قبله، بل ستجد في ترجمة كلِّ عالمٍ غزيرِ النتاج مثل هذه الفصل، لأنه فصلٌ عظيمٌ في حياتهم.

وهذا في كافة التوجهات العلمية والفكرية، فحيثما وجدَّت الغزارة والاستمرارية والتأثير ففتش عن الإعراض عن فضول النزاعات، ففي أثناء الترجمة التي كتبها الدكتور جلال أمين للروائي المصري المكثِّر نجيب محفوظ تجد هذه العبارة التي جُعِلت مفتاحًا لفهم شخصية الأديب المُتَرَجِّم: (إذا كانت الكتابة الجادة المنتظمة على النحو الذي يريجه تتطلب مجاملة هذا الشخص أو ذاك فلا بأس فيها، ولا داعي لأي شجار أو أية مواجهة أو أية معركة إذا كانت ستعطله عن عمله أو تحرفه عن مساره، وإذا كانت كلمةً طيبة توجه إلى رجلٍ سخيِّ قبيلة بأن تخلصه من هذا الرجل وتصرفه إلى سبيله فما الضرر منها؟ المهم هو الأدب والنتاج، وكل ما عدا هذا بسيط وغير مهم ولا بدَّ أن يُنسى).

ومما يُنسب في هذا الصدد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: (إذا سمعت كلمةً تؤذيك فطأطي لها حتى تتخطَّك)، ومن شغل نفسه بالمتابعة الدقيقة لكلِّ الأصداء، ثم هو يفتح على نفسه بابًا للانتصار والانتصاف ممن نَدَّت منهم كلمة أو عبارة، فهذا خُلَعٌ عن رأسه عِمامة الراحة ونَقَشٌ شعر الأكدار!

وأكثر ما يضيع على أمثال هذا الإنسان هو زمانه، وهو أجلُّ وأعظم ما يملكه المرء في حياته، ولذا حين ذكر ابن تيمية عشرين فائدةً للصبر والإعراض عن الجاهلين أشار إلى مصلحة الحفاظ على الوقت، وذلك لأنَّ الزمان ظرف الأعمال العظيمة، فقال: (أن يعلم أنه إذا اشتغلت نفسه بالانتقام وطلب المقابلة ضاع عليه زمانه، وتفرق عليه قلبه، وفاته من مصالحه ما لا يمكن استدراكه، ولعل هذا يكون أعظم عليه من المصيبة التي نالته من جهتهم، فإذا عفا وصفح فرغ قلبه وجسمه لمصالحه التي هي أهم عنده من الانتقام).

وليس بالضرورة أن يكون وراء الاهتمام بتتبع الأصداء ضعفٌ في جانب الإخلاص، فربما وَجَد الإعراض ولم يوجد الإخلاص، فهو أقرب ما يكون إلى قوَّة نفسية وعادةٍ قلبية تُكْتَسَب بطول الجران وكثرة الجراس، فإذا أردت أن تنتظم في أعمالك فأغلق ما استطعت من نافذة الأصداء!